الأبعاد الدلالية والفنية للزمان والمكان في "مسرحية ديوان الزنج" لعز الدين المدني

يوسف بغدادي
المشرف: **د أحمد التجاني سي كبير**، أستاذ محاضر "أ"
مخبر النقد ومصطلحاته
جامعة قاصدي مرباح ورقلة

ملخص
يعتبر الزمان والمكان من أهم دعائم العمل المسرحي عرضاً و نصاً، فهما من العناصر الأولى التي تواجه القارئ(المشاهد)، ويختلف الزمان والمكان من مسرحية إلى أخرى، وذلك بحسب الموضوع المراد تناوله، ولهذا جاء بحثنا هذا للكشف عن أهم الأبعاد الفنية والدلالية للزمان والمكان من خلال مسرحية ديوان الزنج لعز الدين المدني، والوقوف على أهم الأحداث والأمكنة التي جرت بها وقائع المسرحية.
الكلمات المفتاحية: *المسرح، الزمكان، أبعاد، الفنية، الدلالية.*

Résumé
L'heure et le lieu varient d'un théâtre à l'autre, en fonction du sujet à traiter, c'est pourquoi notre article révèle les dimensions artistiques et sémantiques les plus importantes du temps et du lieu. Pendant le jeu du zenge de la Azedine El Madanni, présentez-vous sur les événements et les lieux où se sont déroulés les débats.
Mots-clés *: théâtre, espace, temps, dimensions, artistique, sème.*

Abstract
The time and place vary from theater to theater, depending on the subject to be addressed. This is why our article reveals the most important artistic and semantic dimensions of time and place. During the play of the zenge of Azedine El Madanni, and stand on the events and places where the proceedings took place .
Keywords *: Theater, Space, Time, Dimensions, Artistic, Sem.*

مقدمة

يعتبر الزمن والمكان من أهم العناصر السردية الفاعلة، التي يتم توظيفها داخل البناء المسرحي لتكون نافذة شفافة يطل من خلالها المتلقي بعيون الكاتب على صراع الإنسان مع نفسه أولاً، ومع مجتمعه ثانياً، فهما بمثابة المجاذيف التي تحرك معطيات الحياة

الإنسانية على أرضية الفن المسرحي، فما حقيقة الزمن الذي رسمته مسرحية "ديوان الزنج"؟ وفيما تجلت خصوصية الحضور الذي سجله الزمن داخل هذه الأخيرة؟ وكيف تعامل "عز الدين المدني"[1] مع الزمن في مسرحيته؟

ولما كان المكان المسرحي يلعب دوراً حيوياً بارزاً في النصوص المسرحية التي لم تعطها الدراسات النقدية حقها من الدراسة المركزة لذا جاءت دراستنا كخطوة مبدأية نرصد من خلالها مختلف تجليات المكان في مسرحية "ديوان الزنج" انطلاقا من إشكالية مفادها البحث عن مستوى تجليات الزمان والمكان في هذه المسرحية، ومدى نجاحه في رسم أبعادها الدلالية والفنية؟

-أولا: الزمان

المفهوم اللغوي للزمن

نجد الزمن في قاموس المحيط «اسم لقليل الوقت وكثيره والجمع أزمان، وأزمنة، وأزمنة، وأزمن المكان أقام به زمنا، والشيء طال عليه الزمن، يقال: مرض مزمن وعلة مزمنة، والزمان الوقت قليله وكثيره، ويقال السنة أربع أزمنة، أقسام وفصول»[2].

المفهوم الاصطلاحي

إن صعوبة القبض على معنى محدد ودقيق للزمن قضية شغلت العديد من الفلاسفة والأدباء، فقد تباروا في وصف هذه الصعوبة فنجد القديس أوغسطين يقول «عندما طرح على نفسه سؤالا يتعلق بماهية الزمن ما هو الزمن؟ عندما لا يطرح علي أحد هذا السؤال فإني أعرف، وعندما يطرح علي فإني آنذاك لا أعرف شيئا»[3] فبين ما تعرفه عن الزمن وما لا تعرفه على الزمن توجد مساحة كبيرة مفتوحة على كل الاجتهادات التي حاولت أن

1- ولد (عز الدين المدني) بتونس سنة 1938 وتعلم بها الابتدائي والثانوي بمسقط رأسه، ثم تابع دراسته بفرنسا، اشتغل بوزارة الثقافة ثم بالحقل الصحفي مستشارا لدى وزير الثقافة، أقبل منذ شبابه الباكر على الإنتاج الصحفي والأدبي فألف الكثير من القصص والمسرحيات ونشر منها مجموعة: خرفات ومسرحيات ثورة صاحب الحمار ورحلة الحلاج وديوان الزنج والغفران ومولاي السلطان الحفصي، وأهم أعماله التي مثلت على الركح في المهرجانات المختلفة : ثورة صاحب الحمار، ديوان الزنج، على البحر الوافر، التربي والتدوير، تعازي فاطمية، الفرس (اقتباس).

2-الفيروز أبادي مجد الدين محمد بن يعقوب:"القاموس المحيط" مصر، شركة ومطبعة مصطفى ألبابي الحلبي وأولاده، ج3، ط2، 1952، ص233- 234.

3-سعيد يقطين: "تحليل الخطاب الروائي – الزمن- السرد-التبئير" المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 1997، ص61.

تتناول عنصر الزمن بالتعريف باحثا عن آثار تركتها هنا وعن أشلاء تبعثرت من بعد انقضائه وزوال أجياله هناك.

المفهوم الأدبي للزمن

يرى مارسيل بروس[4] Marcel Proust بأن الزمن هو: «وعاء تجاربنا وخبراتنا ورؤانا ومتى نصل إليه لابد من اعتماد الأدب وخاصة فن الرواية كوسيلة أو أداة تضعها على عتبة، لأن الرواية على حد اعتباره»[5] « الحياة التي تكشف عن طبيعة ذواتنا وما يجري فيها من أسرار وغرائب»[6].

والزمن_في المسرحية هو كحبل متين يشد إليه كل شيء، فتقع كل من الحبكة والشخصيات والحوار تحت جبروته، وإليه تغيرت، ليتم تمييز عدة أنواع من الزمن، منها: زمن الخلق: ونعني بزمن الخلق نقطة الانطلاق أو الزمن الذي أخرج فيه المبدع عمله إلى النور، وقد كتب المدني مسرحية: "ديوان الزنج"_في فترة حساسة كان المجتمع التونسي والعربي عامة_في حاجة إلى التغيير والانتفاض ضد السلطات الحاكمة، لأنها سلطات استغلالية انتهجت نفس السياسة التي طبقها المحتل لا حرية ولا مساواة ولا ديمقراطية حقيقية، فكانت هذه المسرحية بمثابة نقد لاذع لهذه السلطات ومحفز للشعب_في نفس الوقت ليثور على كل من يحاول استغلال البلاد من أجل مصالح شخصية، ويورد لنا عز الدين المدني_في الركح الثاني من المسرحية الدوافع التي دفعته لتأليف ديوانه هذا ومن ذلك قوله« أنا مؤلف ديوان الزنج، لقد ألفت هذا الديوان المسرحي على ضوء الثورات، والانتفاضات والانقلابات التي جرت... _في النصف الثاني من القرن العشرين وفي عدد من بلدان العالم الثالث»[7].

أما الزمن المسرحي: فيتم التعبير عنه من خلال الحوار ففي العرض يتم تجسيد فترة زمنية معينة،تستنتج من خلال الديكور والطراز والأغراض وقطع الأزياء والإضاءة، حيث لم يشير

4- مارسيل بروستMarcel Proust) ولد بروست بالقرب من باريس عام 1871 لعائلة غنية، ودرس القانون والأدب.؛ وهو روائي وناقد فرنسي عاش_في أواخر القرن 19 وأوائل القرن 20 في باريس، من أبرز أعماله سلسلة روايات البحث عن الزمن المفقود)بالفرنسية (À la recherche du temps perdu : و كان بروست ناقداً ومترجماً واجتماعياً أيضاً.

5- عبد المالك مرتاض "نظرية الرواية بحث_في تقنية السرد" المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ديسمبر، 1998، ص200

6- بشير بيجرة محمد:"بنية الزمن_في الخطاب الروائي الجزائري 1970- 1986" دار الغرب للنشر والتوزيع، ج1، 2002، ص20.

7- عز الدين المدني، ديوان الزنج، الشركة التونسية للتوزيع، دط، 1983، ص83

الكاتب في هذه المسرحية إلى الفترة الزمنية التي وقعت فيها الأحداث، بطريقة مباشرة، إلا أن هناك إشارات هنا وهناك إلى زمن وقوعها، فأحداث المسرحية وقعت في عهد بني العباس،حيث ثار فئة من الشعب على حكم العباسيين، وانفصلوا عنهم، وسميت هذه الثورة: "ثورة الزنج" ويمكن استنتاج ذلك من قول أحدهم:« -علي بن محمد: يا أعضاء مجلس الثورة ماذا بعد؟..أن حررنا الناس من الاستعباد والاستغلال، وبعد أن انتصرنا، في معركة أولى على بني العباس»[8].

ومن المكونات الدالة أيضا على الزمن في مسرحية "ديوان الزنج" نجد قول رفيق: «فأنشدوا معي إذا غدا هو الغد الأفضل»[9] وكذلك قول خليل بن أبان: « كقطاع الطرق كنا نهاجم قوافل التجار منذ عشر سنوات»[10].

يعبر هذا الزمن المسرحي التاريخي بطريقة رمزية عن الحاضر وعن الغد، فرغم أن أحداث المسرحية تجري في زمن مضى وانقضى، إلا أنها تشخص حاضراً تونسياً ومغاربياً وعربياً وتستشرف مستقبلاً وغداً مختلفاً، وهي وإن لم تصرح بهذا مباشرة إلا أنها تلمح إلى ثورة الزنوج (الشعب) قادمة ضد الذين اختطفوا الثورات واختطفوا البلدان...

-ثانيا: المكان(lieu)

لغـة

ورد في لسان العرب : «في جذر (مكن) ،أبو منصور: المكان والمكان واحد ، الليث: مكان في أصل تقدير الفعل مفعل لأنه موضع لكينونة الشيء فيه... قال: و الدليل على أن المكان مفعل أن العرب لا تقول في معنى هو مني مكان كذا و كذا إلا مفعل كذا و كذا بالنصب، ابن سيدة : والمكان الموضع ، والجمع أمكنة، و أماكن جمع الجمع، قال ثعلب : يبطل أن يكون مكان فعالا لأن العرب تقول : كن مكانك و قم مكانك واقعد مقعدك، فدل هذا على أنه مصدر من كان أو موضع منه قال : و إنما جمع أمكنة فعاملوا الميم الزائدة معاملة الأصلية »[11]، أما في مادة (كون) فقد دل المكان أيضا على معنى الموضع «وعند

8- المصدر نفسه،ص 54.

9- عز الدين المدني، ديوان الزنج، ص53.

10 المصدر نفسه، ص55.

11 -ابن منظور: لسان العرب، المجلد السابع، تحقيق عامر أحمد حيدر، مراجعة عبد المنعم خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2005، ص995.

الليث المكان اشتقاقه من كان يكون ولكنه لما كثر الكلام صارت الميم كأنها أصلية والمكانة المنزلة والموضع»[12] والمقام الرفيع عادةً. ويذهب صاحب تاج العروس إلى المعاني نفسها في الجذرين (مكن وكون)[13].

المكان أدبيا

يصرح حسن بحرواي بأن المكان هو البؤرة الضرورية التي تدعم الحكي وتنهض به من خلال كتابه " بنية الشكل الروائي" ضمن الباب المعنون بـ«البنية المكانية في الرواية المغربية »[14] .

كما يعد "غالب هلسا"من الباحثين الذين اهتموا بمصطلح المكان بالرغم مما وجه له من قصور في ترجمة لعنوان كتاب "غاستون باشلار" (la poétique de l'éspace) بجمالية المكان، يقول في ذلك بعض نقادنا: «استعمال المصطلح الشائع في النقد العربي المعاصر (جماليات المكان) ترجمة غير سليمة ولا دقيقة التمثيل للمعنى »15، إلا أننا نعتبر هذا المسعى الذي قام به "غالب هلسا" تنبيها منه وتنويها إلى أهمية المكان، بل إنه يعد إيثارا منه لاستعمال هذا اللفظ عن غيره، بالرغم مما وصف به حسن نجمي هذه الترجمة بالجناية[16] والخطأ.

المكان المسرحي

يشكل المكان المسرحي:« الموضع المتخيل الذي تجرى فيه الأحداث، والذي تحدده الإرشادات الداخلية ويسمى مكان الحدث وينقل إلى الخشبة ماديا بعلامات تدرك بالحواس ومنها الديكور»[17].

---

[12] المصدر نفسه، ص947.

13-ينظر: محمد الحسين الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، المجلد الثامن، دار الكتاب العلمية، بيروت، ط1، 2007، ص ص 34-95.

14-حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي الربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2009، ص29.

15-عبد الملك مرتاض: نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، مجلة عالم المعرفة، شعبان1419هـ، ديسمبر كانون الأول 1998، ص141-142.

16-ينظر: حسن نجمي: شعرية القضاء، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2000،1، ص42.

17-ماري إلياس، حنان قصاب، مفاهيم ومصطلحات المسرح وفنون العرض، مكتبة لبنان ناشرون، ط1، بيروت، لبنان، 1997، ص473.

إن المكان هو عنصر جوهري تتميز به المسرحية عن بقية الفنون، وقد ذهب بعض الدارسين إلى اعتبار المكان واحدا من أبطال المسرح الحقيقيين والفعلين، أما الحيز المكاني، أما الفضاء الذي ورد في نص مسرحية: "ديوان الزنج" تجري أحداثه في المدينة "المختارة".

أما الفضاء"الثاني فهو مجلس الثورة كما وردت على ألسنة ممثلي المسرحية بعض الأماكن التي كانت نقطة انطلاق لثورتهم مثل: المسجد والسجن وأماكن أخرى لم تقع الأحداث فيها بعد، ما هموا في صدد التحضير لخوض الحروب لتحريرها مثل: البصرة، العراق، الكوفة، بغداد...

فضاء المدينة

وقد ورد فضاء المدينة في المسرحية بشكل مكثف ومن أمثلة ذلك قول رفيق: «وغدا، مدينتنا، نريدها فاضلة»18، وكذلك في قوله أيضا: «هل تستطيع بالمساواة أن تطعم الجائعين، أن تبني مدينة "المختارة" إذا لنقل أن لك مفتاحا سحريا تفتح به كل المعضلات»[19].

وهي "المدينة الفاضلة" التي مدينة متخيلة من نسيج خيال الكاتب المسرحي وهي تشبه إلى حد كبير رسمها "أفلاطون" في مخيلته ولعل الشبه بينهما أن أعضاء مجلس الزنج يريدونها فاضلة يعم فيها السلام والرقي ويظهر ذلك في قول رفيق: «وغدا، مدينتنا، نريدها فاضلة»[20].

فعز الدين المدني اختار مدينة متخيلة لتتسع لكل فرد ثار ضد الفساد والظلم والطغيان لكل فرد بغض النظر عن ميولاته وتصوراته، مدينة ليست مقيدة بحدود جغرافية ولا أي انتماء عرقي أو فكري أو قومي أو أيديولوجي معين.

كما ورد فضاء المدينة في قول محمد بن سلم: « بمن ستشيد أسوار مدينة المختارة ؟»[21]، وفي قوله أيضا: «كيف سنبني هذه المدينة؟ عباسية أو أندلسية؟، فاطمية أم رومية؟، صينية أو فرعونية»[22].

16-عز الدين المدني، ديوان الزنج، 1983، ص53.

19- المصدر نفسه، ص.61

20- المصدر نفسه، ص 53.

21- عز الدين المدني، ديوان الزنج، ص67

– رفيق: «أم نأخذ من كل شيء بطرف؟ فنوفق، ونرقع، ونفتق، ونرتقي، ونلفق؟..ستكون مدينتنا مجنونة! »[23]

وعليه فأعضاء المجلس يريدون أن يأخذوا من الهندسة المعمارية الأندلسية والعباسية وشيئا من الفرعونية والصينية ليبنوا مدينة استثنائية تمثل القيم الانسانية السامية ولا مثيل لها من قبل.

ويدل بناء المدينة على الاستقرار، فالمدينة مكان اجتماعي له دلالة عميقة فبناءها يدل على التقدم والازدهار فالثوار لم يكتفوا بمجرد الانتفاض وخوض الحروب، بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك، فقد اتجهوا إلى التفكير في البناء والتشييد، أي فيما بعد الثورة، فأي عمل ثوري يبدأ بالحروب، لابد له أن يفكر أيضا في معركة البناء.

2-فضاء مجلس الثوار

أما الفضاء الثاني الذي أوردته المسرحية فهو: "مجلس الثوار"، وهذا المكان المغلق الذي تنعقد فيه جلسات التشاور والتفاهم حول كيفية تشييد مدينة "المختارة"وكيف سيحررون البقاع المتبقية من سيطرة العباسيين، وقد ذكر هذا الفضاء عدة مرات: «يجلس السابع في صدر المجلس الذي يكون في شكل هلال»[24].

كما ترد على لسان الثاني (صاحب الكتاب): «يشير بحركة من أرسه: ثم يقرأ الكتاب كأن به قائمة أسماء أعضاء المجلس كما يقول السابع: (سلامساي) يشير بحركة إلى انعقاد المجلس. »[25]. انه وفي اجتماع أعضاء مجلس الزنج وجلوسهم في طاولة مستديرة للحوار دليل على التفاهم وحسن التنظيم، فالمجتمع الأرقى هو الذي نجده يحتكم إلى الحوار والتشاور والتفاهم، فقد كان يهدف عز الدين المدني من خلال إيراده لفضاء المجلس وفضائه العام إلى التأكيد أن ثورة الزنج لم تكن ثورة فاسدة قام بها شباب متهور أو عبيد،

22- المصدر نفسه، ص68.
23- المصدر نفسه، ص نفسها.
24-المصدر نفسه، ص64.
25- المصدر نفسه، ص نفسها.

ولم تكن فردية بل هي جماعية، قام بها رجال لا تعوزهم الحكمة والفطنة والعلم أحد أهم أركان الثورة، فالجهلة لا يقومون بالثورة وإن قاموا بها فمآلها الفشل الذريع، لهذا كان «تحت إبط ثانيهم كتاب الحكمة والحكماء»[26]، كما تحتاج الثورة إلى تدين، فلا وجود لحضارة أو ثورة بدون عقيدة ودين يهتدى به، لهذا كان في يد« ثالثهم مسبحة عنبر حباتها التسع والتسعون سوداء»[27].

فحمل الثالث للمسبحة دليل على تشبث أعضاء مجلس الزنج بالدين. أما الغالبية كانت لذوي السيوف ويظهر ذلك«من أحزمة رابعهم، وخامسهم، وسادسهم تتذلي سيف معقوفة من نجران وصنعاء»[28].

فالسيوف دليل على المقاومة والنضال، فأساس أي ثورة هو العمل المسلح، فهو في الطليعة قبل السياسة والبناء...، لهذا أعطى المدني الأكثرية لذوى السيوف، فهم الثوار الحقيقيون الذين يجسدون الثورات في الميدان بعدما يخطط لها الحكماء وهم حماتها الحقيقيون من الثورات المضادة.

3-فضاء السجن

كما ورد فضاء السجن مرة واحدة في النص على لسان محمد بن سلم: «والسجن إثر السجن والنفي، والتشريد»[29] وهذا رمز إلى أنه لابد أن يكون هناك ضحايا وسجناء في أي ثورة وهي ضريبة لابد للثورة والثوار مهما كانت قوتهم وزمانهم ومكانهم أن يدفعوها بكل شرف.

أهم النتائج

- إن توظيف الزمان والمكان لا يعد اعتباطا من قبل المدني بل يحمل في طياته دلالات متعددة تنم على سعت ثقافته وتطلعه على التراث الأدبي.
- لقد كان الزمن في النص المسرحي متواترا عبر عن أحداث تاريخية في سجل التاريخ التونسي.
- للزمن والمكان وظيفة فنية تتجسد في جذب انتباه المتلقي طيلة مجريات المسرحية.

26- عز الدين المدني، ديوان الزنج، ص63.
27- المصدر نفسه، ص نفسها.
28- المصدر نفسه، ص نفسها.
29- المصدر نفسه، ص55.